محنة المساجد في السودان: بين توظيفها سياسياً واستهدافها عسكرياً

استخدمت الحركة الإسلامية السودانية، منذ سيطرة مجلس ثورة الإنقاذ، الغطاء العسكري في 30 يونيو 1989 للاستيلاء على السلطة في السودان. واعتمد النظام الانقلابي الجديد على الفور سياسات تتظاهر بأنها صادرة عن المواطنين السودانيين المعتدلين، كانت واقع الأمر متجذرةً في أيديولوجيات الإسلام السياسي التي تهدف إلى تعزيز سيطرتهم. ولتحقيق ذلك، قاموا بتقييد الحريات في الحياة العامة والخاصة من خلال اعتماد قوانين ولوائح قمعية، منها قوانين النظام العام.

ولتنفيذ هذه السياسات، استخدموا الكثير من اللافتات الدعائية التي رفعت شعارات إسلامية علانية لخلق ثقافة إسلامية جديدة. وتضمنت هذه الحملة عرضاً فنياً لاسم الله على التلفزيون القومي السوداني.

هدفت جهود الأسلمة التي بذلها النظام إلى استخدام الإسلام كمظلة دينية لإضفاء الشرعية على حظر أي انتقاد يوجه له ومهاجمة أصوات المعارضة في الوقت نفسه. وتبنى النظام خطوة تكتيكية بإعادة تسمية الحرب الأهلية ضد الحركة الشعبية لتحرير السودان إلى "الحرب الجهادية" لحشد المدنيين للقتال في الخطوط الأمامية. وتضمنت الخطط المنهجية إنشاء منظمات مثل نداء الجهاد وبرامج تلفزيونية تبث كل مساء جمعة تسمى ساحات الفداء. وإلى جانب ذلك، استغل أئمة المساجد الموالين للنظام خطب الجمعة للعب دور مهم في نشر أهداف النظام.

واستمر النظام في استخدام المساجد كنقاط تجمع لفرض أهدافه، ودعا إلى صلاة الليل لدعم النظام ليلتين على الأقل في الأسبوع، وهي الصلاة المسماة بقيام الليل.

واستخدمت المساجد في بعض الجامعات السودانية خلال عهد النظام السابق كأماكن خفية لتخزين القضبان الحديدية وغيرها من الأشياء على يد طلاب الحركة الإسلامية للتحريض على العنف ضد طلاب المعارضة، خاصة خلال انتخابات اتحادات الجامعات.

ولعبت المساجد مرة أخرى دوراً سياسياً خلال الثورة السودانية لسنة 2018 إذ استغل الأئمة التابعون للنظام خطب الجمعة لتقويض الاحتجاجات السلمية ووصف المتظاهرين بأن لديهم أجندات على الضد من مصالح الشعب السوداني. واحتجوا أيضاً بتعاليم إسلامية تحرم الوقوف ضد الحاكم المسلم.

أما بعد اندلاع الحرب في 15 أبريل 2023، فقد صارت المساجد أهدافاً مشروعة للأطراف المتحاربة واستهدف القصف العديد من الأئمة الذين أيدوا وقف الحرب، مما أفضى إلى تنفيذ اعتقالات. وفي ولاية الخرطوم وحدها، تعرض ما لا يقل عن 12 مسجداً للقصف. ووقعت حوادث مماثلة في الجنينة في غرب دارفور والفاشر في شمال دارفور. وفي 23 يونيو 2024، استهدفت قوات الدعم السريع مسجد التجانية الصوفي في حي التجانية، الفاشر، حيث كان السكان قد لجأوا إلى المسجد. وأسفر هذا الحادث عن مقتل ثمانية أطفال وإصابة ما لا يقل عن اثني عشر آخرين، من بينهم أطفال. ومما يجدر ذكره هنا أن القائد العام لقوات الدعم السريع، اللواء محمد حمدان دقلو، وشخصيات مهمة أخرى مثل موسى هلال واللواء علي يعقوب، مرتبطون بالطريقة التجانية الصوفية.

كانت المساجد في السودان تاريخياً موضع إجلال ولا يتم الزج بها في الأغراض السياسية والعسكرية. ولكن منذ عام 1989، حوّل نظام الحركة الإسلامية المساجد إلى مسارح للتعبئة والرسائل السياسية. وتُظهر الأحداث أن جماعة الإسلام السياسي لا تحترم أي حدود عندما يتعلق الأمر بالصراع على السلطة. فعلى سبيل المثال، خلال النزاع في دارفور عام 2004، تم إحراق ما لا يقل عن 19 امرأة وأطفالهن الرضع داخل قرية السرة في ولاية وسط دارفور خلال هجمات استهدفت مدنيين من قبيلة الفور، لمجرد الاشتراك في الانتماء الإثني مع المتمردين.

مما لا شك فيه أن الإسلام السياسي استغل أماكن العبادة لأغراض سياسية ويستمر في استهدافها أثناء النزاعات، وقد أدى ذلك إلى ضعضعة قيم الأفراد الذين عليهم الانضمام إلى الجيش، ووضعهم في نفس موقف قادة الإسلام السياسي الذين يتجاهلون احترام وحماية الحق في حرية العبادة.

محمد بدوي

مدير الرصد والتوثيق، مركز أفريقيا لدراسات العدالة والسلام